محمود صبح

والفن الجميل

obeikan.com

ربما ذهبت يوما لتستمتع إلى الموسيقى العربية القديمة.. وتستمتع بتلك النغمات العذبة التى تعبر عن صدق المشاعر والقدرة على إشعال الروح بالعاطفة والمتعة الثمينة..

ولابد أن البرنامج لهذا الحفل كان يضم موشحاً أو مقطوعة موسيقية أو قصيدة مغناة للموسيقى البارع محمود صبح.

إن محمود صبح كان أحد البارعين فى فن الموسيقى والغناء خلال النصف الأول من القرن العشرين فى مصر.. لكنه عاش بمحنة شديدة لازمته منذ كان فى الرابعة من عمره.. وهى محنة كف البصر.

فقد ولد فى عام ١٨٩٨م طفل أسماه أبوه (محموداً).. وكان يتمني الأب أن ينشأ هذا الطفل ويشب ليساعده فى عمله وتجارته للأخشاب.. لكن القدر قد رسم له طريقاً آخر.. حينما رمدت عيناه فى الرابعة من عمره وبذل الأب كل جهده فى علاجه بلا جدوى.. وتسبب ذلك فى انطفاء نور عينيه..

لم يجد الأب سوى الرضا بما قسمه الله وقضاه.. فأدخل ولده الكتَّاب لحفظ القرآن.. ولما يبلغ العاشرة حتى أتم حفظ القرآن وتجويده.. لكن علاقته بالكتاب لم تمنعه من ممارسة طموحه الخاص.. فكان يجمع حوله أصدقاءه ويكوِّن منهم (جوقة) وينشد معهم أناشيد المولد.. وكثيراً ما كان يسير فى مواكب رؤية رمضان.. ينشد الأناشيد بصوته الصغير.. ويعجب به الناس.. كما أحب تلاوة القرآن الكريم.

أما ممارسته للعب.. فقد كان يحب لعبة الخزروف (النحلة) حيث كان يرميها على الأرض.. لتدور بصوتها المنتظم.. ثم يطأطئ رأسه منحنياً إلى الأرض ليسمع صوتها وهى تتحرك وتدور..

كما كان يصنع عوداً بدائياً صغيراً ويشد خيوط الدوبارة بين خشبتين ويضرب عليه ويغني..

تعلق إذن بحب الموسيقى منذ نعومة أظفاره.. وكان ذا صوت حسن عريض.. يمكن أن يستوعب ألحاناً صعبة بسهولة شديدة.

كان الشيخ محمود وهو فتى.. يحب أن يزور أصدقاء أسرته من أصل تركي.. فأعجبته هذه اللغة.. وقرر أن يتعلمها لكي يستطيع التحدث بها معهم.. وكان تعلمه لهذه اللغة فتحاً لتعلم ومعرفة كثير من الموسيقى التركية وفن الغناء هناك.

وفى البيت التركي طرق سمعه (البيانو).. فطلب أن يتحسسه ويعزف عليه السلم الموسيقى.. وبسرعة فائقة استطاع أن يتعلمه ويعزف عليه بمهارة.. وكان هذا أول عهده بالآلات الموسيقية.. وكان آنذاك فى الرابعة عشرة من عمره.

تم تعلم آلة العود بطريقته الخاصة.. وكانت له طريقته المميزة فى العزف.. ولم يكتف بذلك.. بل أخذ يقرأ القرآن فى المساجد والاحتفالات بصوت رخيم جميل.

جمع إذن فى ثقافته الموسيقية بين الشرقية والتركية.. وأخذ ينهل منهما.. ويؤلف ويغنى بأسلوبه الجميل.

وقام بتلحين أول موشحة له وهو فى الخامسة عشرة واستمع إليه الشيخ سلامة حجازي الموسيقى المعروف فتنبأ له بمستقبل باهر فى عالم الغناء والموسيقى.

وكانت مصر فى أوائل القرن العشرين تحفل بمدارس موسيقية كثيرة وكانت المنافسة على أشدها بين سيد درويش وسلامة حجازي وعبده الحامولي ومحمد المسلوب وغيرهم.. فقرر محمود صبح أن يدخل هذه المنافسة بأعماله المختلفة حتى لفت إليه الأنظار.

وكان يتميز بالزهد ولا يهمه المال.. بل كان كل أمله أن يتفوق فى الموسيقى فقد أحبها وجعلها طموحه الأول فى حياته.. وكثيراً ما كان يصاب بضائقة مالية.. لكنه كان يأبي دائماً أن يبتذل بفنه حتى يفرج عن نفسه هذه الضائقة.. بل كان معتزاً بكرامته مخلصاً لفنه سامياً بكل هذه القيم التى يسعى إلى تحقيقها.

لم يعقه كف بصره عن تحقيق ما يتمناه.. بل شق طريقه فى إصرار وعزم وإرادة.. غير عابئ بسخرية الناس.. أو آرائهم فيه.. وكثيراً ما نشرت الصحف ما أسعده وما أحزنه.. ولكنه كان واثقاً من قدرته على العطاء.. ولم يضق بأي نقد وجه إليه.

ويذكر أنه فى عام ١٩٣١م أملى على ولده خطاباً وجهه إلى أحد الباشوات الذين يعزهم ويعزونه.. عاتبه فيه

عتاباً شديداً على أمر بدر منه، فما إن وصل الخطاب إلى الباشا حتى سعى إليه مهرولاً فى بيته.. وكان محمود صبح فى الدور الخامس.. ووقفت عربة الباشا أمام البيت وأرسل من يطلب الشيخ محموداً.. لكنه قال للرسول: على الباشا أن يصعد لي فهو ضيفي.. وبالفعل صعد الباشا وأخذ يسترضيه حتى صفت نفسه..

وحينما بدأت الإذاعة فى بث برامجها كان الشيخ محمود صبح من أوائل الذين شاركوا بألحانهم فى بثها من الإذاعة.. وكان من أصدقائه الذين غنى لهم: أحمد رامي – محمود يونس القاضي – إبراهيم الدباغ – محمد غالب المهندس – د. حسين الأيوبي – محمود لبيب وغيرهم من مؤلفي ذاك الأوان.

وفى أوائل عام ١٩٤١م هاجمه مرض لعين أودي بحياته بعد أن ترك لنا تراثا موسيقياً رفيعاً.. ونموذجاً حياً للإرادة الإنسانية القوية.